عماد عبد اللطيف

لماذا يصفّق المصريون؟

(القاهرة: دار العين، ٢٠١٠). ٢٢٠ ص.

فيصل درّاج(*)

ناقد أدبي.

ـ ١ ـ

يجمع هذا الكتاب بين العمق والجدة والمعرفة والذكاء من جهة، والعلم النظري والدراسة التطبيقية من جهة أخرى؛ فهذه هي المرة الأولى التي يقع فيها القارئ العربي على كتاب بالعربية موضوعه: التصفيق، تتداخل فيه حقول معرفية متعددة: علم البلاغة والاتصال الجماهيري وعلم الاجتماع وعلم النفس، التي تنتهي جميعاً إلى «السياسة». ومع أن الكتاب يتضمن مادة واسعة عن تاريخ التصفيق وأشكاله، في الخطابة السياسية وخارجها، فالأساسي فيه علاقة الجمهور بالسلطة، التي يفصح عنها: فعل التصفيق. لذا يبدو التصفيق مجازاً واسعاً يضيء السلطة والمجتمع والثقافة والبنية الأخلاقية والنفسية...

ـ ٢ ـ

أفرد الكتاب، في مدخله، صفحات لتاريخ التصفيق، ماراً باليونان والرومان ومصر الفرعونية، ومقتفياً آثار موضوعه في «العهد القديم» والحقبة المبكرة من تاريخ المسيحية. كما رجع إلى موضوعه عند العرب قبل الإسلام، ولدى المتصوفة الإسلامية، لاحقاً، وصولاً إلى «التكبير»، الذي تأخذ به الآن الأصولية الإسلامية بديلاً من التصفيق.

أخذ التصفيق، في تاريخه البعيد والقريب، ثلاث دلالات أساسية على الأقل: فهو تعبير عن استحسان الجمهور لفعل معيّن، خطبة كان أو شعراً أو مسرحية، وهو ما يدعوه المؤلف: التصفيق الاستحساني، الذي يتضمن الحرية والرضا. وقد يكون التصفيق فعلاً إلزامياً، تحتاج السلطة إليه وتمليه، الأمر الذي دفع بالطاغية نيرون، كما تذكر كتب التاريخ، إلى تأسيس مدرسة خاصة لتعليم أصول التصفيق. يحيل الشكل الثالث إلى مهنة التصفيق، أو إلى المصفق المأجور، الذي تحتاج إليه بعض المرافق، في المسارح

(*) البريد الإلكتروني: info@azminah.com.

وخارجها، مقابل خلق وهم الاستحسان، الذي قد يزيد من إقبال الجمهور على موضوع معيّن.

- ٣ -

التصفيق فعل عفوي كوني، يمارسه البشر جميعاً، تعبيراً عن الاستحسان والقبول التحريضي، وهو شكل من التواصل الجماهيري، عن طريق اليدين، يفصح عن التفاعل بين الجمهور والخطيب. غير أن حضور السلطة الطاغية يعيد تأسيس التصفيق، نازعاً عنه عفويته، وجاعلاً منه تصفيقاً قهرياً، يستثمره الخطيب المتسلّط لغاياته الخاصة، التي ليس آخرها اختلاق شرعية كاذبة. ولعل العلاقة بين التصفيق والسلطة القاهرة هي التي تنقل التصفيق من حيّز الفعل التلقائي الحر إلى حيّز آخر أكثر تعقيداً. ولهذا يتحدث المؤلف عن أنواع مختلفة من التصفيق: الحر والإجباري والتلقائي والمعدّ مسبقاً، المجاني والمأجور، الفردي والجماعي، والتصفيق المتصاعد والبطيء،... يتضمن هذا، بداهة، وظيفة «الصفقاتي» المأجور التي تستكمل، عادة، بوظيفة: «الهتّيف»، اللتين تدفعان الجمهور دفعاً إلى التصفيق، بغية البرهنة عن أن صاحب الخطاب شخص متميّز ونوعي، من ناحية، وأنه أهل لثقة الذين يصفقون له، من ناحية ثانية. يعزّز التصفيق موقع الخطيب ويدلّل على تفوقه على المصفقين له.

يحيل التصفيق إلى موضوعين أساسيين: وظيفة الخطابة السياسية والأدوات التي تنتج فاعليتها. أما الوظيفة المرجوة، فتتعيّن بتحقيق السيطرة؛ إذ المصفَّق له أكثر حكمة ودراية من جمهور المصفِّقين، والبرهنة عن الشرعية، فلو لم يكن الخطيب السياسي على مستوى طموحات أمته لما قوبل بالتصفيق. إضافة إلى هذا، هناك تأمين مسافة حاسمة بين المصَفَّق له والمصفِّق قوامها اعتراف باقتسام العمل؛ إذ للخطيب مهنة اتخاذ القرار وإذ لجمهوره مهنة الانصياع، الأمر الذي يسوغ ديمومة الحاكم كما يريد، في الشروط المستبدة طبعاً. ولعل خطورة الخطابة هي التي تجعل منها «فَنّاً»، أو ممارسة لها مادة موائمة محددة هي: فن البلاغة، الذي يجعل من الواقع الكلامي واقعاً أكثر أهمية من الواقع المعيش، أو سلطة اللغة، التي تعلن الفرق بين الموهوب الذي يعرف والإنسان العادي الذي يقنع بلغة عادية.

وتكشف مصطلحات السيطرة والهيمنة واختلاق الشرعية عن أهمية الخطابة السياسية، في الشرط العربي بخاصة، وتؤكدها موضوعاً جديراً بالدراسة العلمية المتأنية؛ ذلك بأن تحرير الخطاب من هيبته السلطوية، كما نزع الصنعة عنه، ينتج بلاغة شعبية مقاومة، تنقل الجمهور من مقام التلقّي السلبي إلى مقام التلقّي الفاعل، الذي يحاصر البلاغة السلطوية ويبطل مفعولها. ولهذا يسأل المؤلف عن أسباب عزوف الدراسات العربية عن تحليل ظاهرة التصفيق، ويعثر على الإجابة في أسباب ثلاثة: انصراف الدراسات إلى اللغة المكتوبة، وتجاهل العلامات غير اللغوية للتواصل، والإعراض عن قراءة كلام الحياة اليومية مقابل الانشداد إلى النصوص العليا (الأدب والشعر والنصوص المقدسة، ...)، إضافة إلى طبيعة ظاهرة التصفيق، التي هي ظاهرة صوتية

«لا يمكن دراساتها إلا من خلال تحليل صوتي لتسجيلات صوتية» (ص ٥٤)، وهو أمر تكتنفه أكثر من صعوبة.

ـ ٤ ـ

درس د. عماد عبد اللطيف، في **الفصل الثاني** من كتابه، التصفيق في الخطب السياسية المصرية المعاصرة، الممتدة بين حقبة جمال عبد الناصر وحقبة الرئيس حسني مبارك، مشيراً، بشكل صريح أو مضمر، إلى التصفيق القهري والتصفيق المعد سلفاً، الموطد بأجهزة الأمن وقادة التصفيق و«المصفقاتية» وكل ما يفضي، لزوماً، إلى تقييد استجابة المخاطبين، سلبية كانت أو إيجابية، ويمنع اللقاء المباشر بين الخطيب والجمهور، الذي عرفته الخطابة اليونانية على سبيل المثال. ولعل احتجاج المؤلف على التلقّي الصامت، أو السلبي، للخطاب السياسي في مصر، هو الذي قاده إلى التذكير بالتصفيق الحر، في فترة ماضية، الذي كان يقابل به المصريون أحمد عرابي والخطب التي كانت تُلقى إبان الثورة الشعبية عام ١٩١٩.

يعمل الخطيب السياسي، في الشرط الديمقراطي، على انتزاع تصفيق استحساني حر، بدون أن ينسى اللغة البلاغية، أو الأفخاخ البلاغية، بلغة المؤلف، التي تهدف إلى الإقناع والإبهار معاً ولا تتبرأ، بدورها، من المخادعة. والفخ البلاغي مهارة لغوية، تجمع (أو تحاول الجمع) بين الحكمة والفطنة والعمق والحكمة، مضافاً إليها، أحياناً، صوراً تنتزع الضحك والإعجاب معاً. وعلى خلاف ذلك، فإن التصفيق للخطابة السياسية، في كثير من السياقات السياسية العربية، سلوك يفتقر إلى الحرية والعفوية، فهو محدد سلفاً، «فغالباً ما يقوم به أشخاص مدربون على قيادة الجماهير نحو التصفيق».

تجعل مصادرة الحريات، في الشروط الديكتاتورية، من دراسة التصفيق السياسي، إن صح القول، أمراً لا ضرورة له، ذلك أن الديكتاتورية تزوّر الخطابة والتصفيق ومعنى الجمهور معاً. وبسبب ذلك، تكون الخطابة السياسية فعلاً مضمون النتائج، فعلى الجميع أن يصفقوا، وتصبح السياسة نشاطاً تصفيقياً، يحتاج إلى اليدين والانفعال ولا يحتاج إلى غيرهما. ومع أن التصفيق، في ذاته، لا يعني شيئاً كثيراً في الأنظمة التي تفتقد الشرعية، فإن هذه الأنظمة، وبسبب غياب شرعيتها بالذات، تحتاج إلى التصفيق أكثر ممّا تحتاج إليه النظم الديمقراطية. ولهذا يتحوّل إنتاج التصفيق، في النظم الديكتاتورية، إلى صناعة رئيسية، لها مسؤولوها وآلياتها والأهداف المطلوبة منها.

أنتجت السلطات المصرية المتوالية تصفيقاً مزوراً، اعتماداً على عناصر سلطوية متكاملة **أولها**: غياب الحرية، الذي يعني أن المواطن غير حر في التصفيق أو في امتناعه عنه، ذلك أن هناك عيناً رقيبة تحصي أفعاله وتسيّرها كما تشاء. ويتمثّل العنصر **الثاني** في انتقاء الجمهور المدعو إلى المناسبة الخطابية، الذي يضمن حضور المصفقين واستثناء غيرهم، انطلاقاً من سجل أمني يميّز بين المصفق المخلص وغيره. ويأتي العنصر **الثالث** من جوقة «المصفقاتية»، المعدّة بإتقان وانضباط، وهي تعرف دورها في التصفيق الافتتاحي، وفي

التصفيق الختامي وما بينهما، موطّدة برجال الأمن وبجوقة «الهتيفة»، التي يتلو هتافها، عادة، التصفيق الإيقاعي، الذي قد يقصر أو يطول. وقد يضاف إلى الهتاف أبيات من الشعر والزجل والزغاريد أحياناً. والمحصلة تصفيق زائف، مصنوع ومصمّم على مقاس السلطة وأهدافها.

ـ ٥ ـ

تبدو السلطة السياسية، في صناعة التصفيق المعدّ سلفاً، هي المصفق الوحيد، الذي يتمثّل، في شروط الاستبداد المتواترة، في رأس الدولة، أو الرئيس، أو الفرعون القديم، حتى لو ارتدى بزة حديثة وحمل غليوناً. وتساعد على ذلك، في الحالة المصرية، أعراف متوارثة تتضمن تأليه الحاكم وعقيدة الخوف من الحكام، وتعيين الخطيب فرداً وحيداً، يقول ما يشاء ولا يساءل. ذلك أن تقديس الحاكم المتكلم يمنع كلياً، الاشتباك بينه وبين الجمهور، أي يمنع الحوار المباشر معه، كما هي العادة في البلدان الديمقراطية.

مع ذلك، فإن لكل رئيس خطاباً محدداً في مراجعه السياسية والأيديولوجية، التي تصوغها البلاغة الخطابية، التي تحدّد تناوب التصفيق، المتصاعد أو البطيء. فقد أدار عبد الناصر خطابه حول معاركه السياسية والقومية، التي تضمنت حرب السويس والوحدة مع سورية وحرب اليمن، دافعاً إلى تصفيق شديد يقوم على «نحن» و«هم». فإذا كان «جيشنا في اليمن» يثير التصفيق، فإن «الرد عليهم»، أي «أعداء العروبة»، يثير تصفيقاً آخر، الأمر الذي يستدعي صفة الأبطال، أو أبطالنا، وسخرية من «هم». الذين يتآمرون على مصر.

أقام أنور السادات لعبته الخطابية، الموطّدة بالقوى الأمنية، على «حرب أكتوبر»، مستدعياً كلمات المعركة والأبطال و«أولادنا»، وتلك اللغة المتخلّفة عن «أخلاق القرية». وأدرج في خطابه «تقريظ الأنا»، الذي يوحي بقائد فريد، يصوغ قراره حراً، وبلاغة توحي بالحكمة، وعمد إلى استثمار الآيات القرآنية كي ينتج خطاباً مخادعاً يختلط فيه التكبير بالتصفيق، ناسياً أنه يؤسس لفتنة لاحقة بين المسلمين والأقباط. إن افتقاره إلى الشرعية هو الذي جعله ينتسب إلى ثورة يوليو وإلى الخطاب الديني في آن، محاولاً الفصل بين الناصرية والساداتية، اعتماداً على تصفيق جديد يرى فيه قائداً ناصرياً ورئيساً مؤمناً وابناً باراً لمصر الخالدة، وهو ما يستعيد، ضمنياً، فرعونية قديمة.

استأنف الرئيس محمد حسني مبارك صناعة التصفيق المعدّ سلفاً، مؤثراً الانطلاق من تعبيري: أمن مصر واستقرار مصر، أو مصر أولاً، الذي يحوّل الشأن العربي إلى هامش صغير، يُستثمر في استقرار مصر، الذي هو استقرار السلطة السياسية. ومثلما فصل السادات بين «نحن المصريين»، التي تختصر إلى أناه، و«هُم»، الذين يساوون الملاحدة والماركسيين والشيوعيين، فصل مبارك بين «المدافعين عن أمن مصر»، وهؤلاء الذين «يتآمرون» على استقرارها، أي «هم» الذي يعني المعارضة.

إذا كان في التصفيق ما يسوّغ سلطة الحاكم، فإن في الفخ البلاغي ما يفضي

أحياناً إلى نتائج سياسية خطيرة، تعقب التصفيق المدوي الذي حجبها وأمدّها بـ «الشرعية». فقد صفق «الجمهور» طويلاً للسادات حين قال أنه مستعد للذهاب إلى أي مكان في سبيل السلام، بما في ذلك إسرائيل. لم يدر المصفقون أن «الرئيس المؤمن» انتزع منهم، في أثناء التصفيق، تفويضاً بزيارة «تاريخية» انتهت إلى معاهدة قيّدت مصر وأخرجتها من الوطن العربي. واعتماداً على هذا التصفيق، المعدّ سلفاً، انتزع مبارك تفويضاً بأن يحكم مصر مدى الحياة، وبأن يخنق الفلسطينيين في غزة، بحجة الدفاع عن مصر واستقرارها.

يتعيّن التصفيق القهري، كما التصفيق الاستحساني، صناعة سلطوية، مؤكداً أن السلطة هي المصفق الوحيد. وتعيد هذه المعاينة صيغة عنوان الكتاب ليصبح: لماذ لا يصفق المصريون؟ ذلك أن المصريين يُصفَّق عنهم، ويُمنعون من التصفيق الحر الطوعي. تدعو هذه المعاينة الموضوعية إلى إعادة الاعتبار إلى التصفيق الحر، التي هي إعادة اعتبار إلى السياسة، وتحويلها من ممارسة تصفيقية تابعة إلى ممارسة شعبية فاعلة وصولاً، بداهة، إلى الاعتراف بالمجتمع المدني وحقوق المواطنة. ولهذا يدعو د. عماد عبد اللطيف إلى مقاومة البلاغة السلطوية القائمة على التلاعب والخدع، بالتحليل العقلاني، ومقاومة الخطابة بالكلمة الواضحة، ومواجهة التصفيق الاستحساني السلطوي بالفاعلية السياسية الشعبية الحرة. وعلى الرغم من شرعية الطموح، فإن التسلّط المطلق، الذي يقوم على القمع الجسدي لا على اللغة، لا يدع مكاناً للكلمة والفعل السياسي، دافعاً بالمواطن المصري دفعاً إلى التظاهرة والاعتصام، وإلى إقامة حد فاصل بين السلطة التي تصادر وجوده والسياسة الديمقراطية التي تعترف به مواطناً وبمصر وطناً، لا ملكية شخصية لمجموعة من المصفقين.

يمكن القول أخيراً إن تحرير مصر من المصفقين، الذي يرون في التصفيق عملاً وحيداً، مدخل إلى مصر أخرى، يعيش فيها من يعمل لا من يصفق.

ثلاثة أسباب تجعل من كتاب **لماذا يصفِّق المصريون**؟ عملاً متميزاً: انطلق في بحثه من ظاهرة يومية مباشرة، بعيداً عن تلك الدراسات المغلقة التي تبدأ بالكتب وتنتهي بها، وعالج موضوعه بأدوات علمية متعددة الاختصاصات. يقول السبب الثالث: عالج عماد عبد اللطيف ظاهرة عرفها المصريون، وعرفتها الشعوب العربية جميعاً □